(٢)

طريقة الخلف في التعامل مع النصوص

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله الله تعالى بين يدي الساعة بشيرًا ونذيرًا، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، فصلوات ربه وسلامه عليه وعلى من اهتدى بهديه واستن بسنته إلى يوم الدين، ثم أما بعد:

المتن:

وَمُحَالٌ مَعَ تَعْلِيمِهِمْ كُلَّ شَيْءٍ لَهُمْ فِيهِ مَنْفَعَةٌ فِي اَلدِّينِ -وَإِنْ دَقَّتْ- أَنْ يَتْرُكَ تَعْلِيمَهُمْ مَا يَقُولُونَهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَيَعْتَقِدُونَهُ بِقُلُوبِهِمْ فِي رَبِّهِمْ وَمَعْبُودِهِمْ رَبِّ اَلْعَالَمِينَ، اَلَّذِي مَعْرِفَتُهُ غَايَةُ اَلْمَعَارِفِ وَعِبَادَتُهُ أَشْرَفُ اَلْمَقَاصِدِ وَالْوُصُولُ إِلَيْهِ غَايَةُ اَلْمَطَالِبِ، بَلْ هَذَا خُلَاصَةُ اَلدَّعْوَةِ اَلنَّبَوِيَّةِ وَزُبْدَةُ اَلرِّسَالَةِ اَلْإِلَهِيَّةِ، فَكَيْفَ يَتَوَهَّمُ مَنْ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى مِسْكَةٍ مِنْ إِيمَانٍ وَحِكْمَةٍ أَنْ لَا يَكُونَ بَيَانُ هَذَا اَلْبَابِ قَدْ وَقَعَ مِنَ اَلرَّسُولِ ﷺ عَلَى غَايَةِ اَلتَّمَامِ، إِذَا كَانَ قَدْ وَقَعَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَمِنَ اَلْمُحَالِ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ أُمَّتِهِ وَأَفْضَلُ قُرُونِهَا قَصَّرُوا فِي هَذَا اَلْبَابِ، زَائِدِينَ فِيهِ أَوْ نَاقِصِينَ عَنْهُ.

ثُمَّ مِنَ اَلْمُحَالِ أَيْضًا أَنْ تَكُونَ اَلْقُرُونُ اَلْفَاضِلَةُ -اَلْقَرْنُ اَلَّذِي بُعِثَ فِيهِمْ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ ثُمَّ اَلَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ اَلَّذِينَ يَلُونَهُمْ- كَانُوا غَيْرَ عَالِمِينَ وَغَيْرَ قَائِلِينَ فِي هَذَا اَلْبَابِ بِالْحَقِّ اَلْمُبِينِ، لِأَنَّ ضِدَّ ذَلِكَ إِمَّا عَدَمُ اَلْعِلْمِ وَالْقَوْلِ، وَإِمَّا اِعْتِقَادُ نَقِيضِ اَلْحَقِّ وَقَوْلِ خِلَافِ اَلصِّدْقِ. وَكِلَاهُمَا مُمْتَنِعٌ.

الشرح:

لما فرغ الشيخ من تقرير استحالة كون النبي ﷺ ترك هذا الباب مهملًا، وأثبت أن النبي ﷺ لا بد أن يكون بيّنه غاية البيان؛ لما ذكر من الأوجه المتنوعة، بدا احتمال يمكن أن يُطرح، وهو أن يكون من تلقوا ذلك عن النبي ﷺ قصروا في هذا الباب فلم ينقلوه إلى من بعدهم، يعني بهذه الواسطة الصحابة الكرام، فكان لا بد أيضًا من نفي هذه الشبهة، فربما قال قائل: نعم، النبي ﷺ بيّن لأمته باب العلم بالله، لكن الصحابة لم يهتموا بهذا وانشغلوا بالعلم بالحلال والحرام وما أشبه ذلك، أو الجهاد في سبيل الله. أو غير ذلك مما يتحذلق به بعض المتحذلقين، فبيّن الشيخ استحالة هذا الأمر على خير القرون، فإن جيل الصحابة وقرن الصحابة هم خير قرون الأمة علمًا وعبادة، قولًا وعملًا، فلا يمكن أن يكون هذا القرن الموصوف بالخيرية التامة قد قصروا في هذا الباب، لأنهم ليس لهم إلا أحد احتمالين: إما أن يكونوا غير عارفين به، أو غير قائلين به، فمعنى كونهم غير عارفين به وصفهم بالجهل، ومعنى كونهم غير قائلين به وصفهم بالكتمان، وكلا الأمرين ممتنع غاية الامتناع عن الصحابة الكرام، فقد كان الصحابة الكرام أعمق الناس علمًا، وأقلهم تكلفًا، وأصدقهم لهجة، كما قال ابن مسعود في وصف أصحاب محمد ﷺ: كانوا أعمق الناس علمًا، وأقلهم تكلفًا، وأصدقهم لهجة، رضوان الله عليهم. فيمتنع أن يكون الصحابة الكرام قد جهلوا هذا الباب، بل -ولله الحمد- قد حُفظ

عنهم في هذا الباب قدر كبير مما يدل على إثباتهم لما أخبر الله تعالى به عن نفسه وأخبر عنه نبيه ﷺ، وسيذكر . إن شاء الله . شيئًا من النقول في هذا.

والاحتمال الآخر أشد بعدًا: وهو أن يكونوا قد علموه لكن كتموه، فإن هذا تخوين للصحابة الكرام، وقد أثنى الله عليهم غاية الثناء في غير ما موضع من كتابه، فهذا مستحيل غاية الاستحالة أن يكون الصحابة قد كتموه، وهم الذين يروون قول النبي ﷺ: (**من كتم علمًا ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة**)، فلا يمكن أن يكون الصحابة الكرام قد جهلوا بهذا الباب ولا أن يكونوا قد كتموه.

المتن:

أَمَّا اَلْأَوَّلُ فَلِأَنَّ مَنْ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى حَيَاةٍ وَطَلَبٍ لِلْعِلْمِ أَوْ نَهْمَةٍ فِي اَلْعِبَادَةِ يَكُونُ اَلْبَحْثُ عَنْ هَذَا اَلْبَابِ وَالسُّؤَالُ عَنْهُ وَمَعْرِفَةُ اَلْحَقِّ فِيهِ أَكْبَرُ مَقَاصِدِهِ وَأَعْظَمُ مَطَالِبِهِ، أَعْنِي: بَيَانَ مَا يَنْبَغِي اِعْتِقَادُهُ، لَا مَعْرِفَةُ كَيْفِيَّةِ اَلرَّبِّ وَصِفَاتِهِ، وَلَيْسَتْ اَلنُّفُوسُ اَلصَّحِيحَةُ إِلَى شَيْءٍ أَشْوَقَ مِنْهَا إِلَى مَعْرِفَةِ هَذَا اَلْأَمْرِ. وَهَذَا أَمْرٌ مَعْلُومٌ بِالْفِطْرَةِ اَلْوَجْدِيَّةِ، فَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ مَعَ قِيَامِ هَذَا اَلْمُقْتَضَى- اَلَّذِي هُوَ أَقْوَى اَلْمُقْتَضَيَاتِ- أَنْ يَتَخَلَّفَ عَنْهُ مُقْتَضَاهُ فِي أُولَئِكَ اَلسَّادَّةِ فِي مَجْمُوعِ عُصُورِهِمْ، وَهَذَا لاَ يَكَادُ يَقَعُ مِنْ أَبْلَدِ اَلْخَلْقِ، وَأَشَدِّهِمْ إِعْرَاضًا عَنْ اَللَّهِ وَأَعْظَمِهِمْ إِكْبَابًا عَلَى طَلَبِ اَلدُّنْيَا، وَالْغَفْلَةِ عَنْ ذِكْرِ اَللَّهِ، فَكَيْفَ يَقَعُ مِنْ أُولَئِكَ !.

الشرح:

صدق، لا يمكن أن يكون هذا الاحتمال قائمًا في حال الصحابة؛ لأن المؤمن الصادق يكون شغفه في العلم بالله وتحقيق التوكل عليه والاستعانة به والشوق إليه والأنس بمناجاته وغير ذلك من المعارف والعلوم ما يتطلب تحصيل هذا العلم، فلا يمكن بحال أن يكون الصحابة الكرام قد جهلوا هذا الباب، بل قد علموه وأحكموه، وليس مقصوده هاهنا العلم بالكيفيات، حاشا وكلا، وإنما العلم بالمعاني، فيعلمون أن الله سبحانه وتعالى له الأسماء الحسنى، وله الصفات العلى، وأن أسماءه كذا وكذا وكذا، وأن صفاته كذا وكذا، فهذا العلم هو أشرف أنواع العلوم، وبه حياة القلوب، وبه تطيب العبادة، بل لا يمكن أن تطيب العبادة بغير العلم بالله، لا يمكن أن يعبد من لا يعلم عنه شيئًا ولا يثبت له شيئًا، ولهذا تجد أن بعض علماء الأشاعرة الذين يُشهد لهم بالصدق والزهادة والعبادة كالنووي يقررون بعض المسائل العقدية تقريرًا نظريًا، وإذا قرأت بعض كلامهم وجدت فيه من النسك والتعبد، وإذا قرأت في سيرهم وجدت فيهم إقبالًا على الله، هذا لا يكون إلا بعلم بإثبات ما ينبغي لله تعالى، فيكون فيه نوع من التناقض بين الوجد وبين التقرير، فإنا نُحسن الظن بكثير منهم ممن لهم قدم صدق في نصرة الدين وخدمة العلم، لكنهم التاثت بعض أقوالهم بما ورثوه من أسلافهم، وإلا ففي التطبيق العملي تجد....[1].

أضرب لكم مثالًا: قول الله تعالى: (يحبهم ويحبونه): الأشاعرة يمنعون المحبة من الطرفين، يقولون: لا يمكن أن تقع المحبة؛ لأن هذا يقتضي التجانس؛ لأن المحبة من الطرفين لا بد أن يكون هناك تجانس. بمثل هذه المقدمات المنطقية المزعومة يهدمون نصًا صريحًا في كتاب الله، فينفون عن الله سبحانه وتعالى أنه يحب، وينفون أن تقع محبة من المخلوق للخالق بمعنى محبة حقيقة، بل يفسرون

([1]) نقص في الشريط الصوتي.

محبة الله لعباده بإحسانه إليهم، ومحبة المخلوقين لله بطاعتهم إياه، ولا يفسرونها بمحبة حقيقة تليق بالله، ومحبة تليق بالمخلوق، لكنك إذا نظرت في سير بعضهم وعبادته وجدت أنه تحصل منه المحبة، يحب الله سبحانه وتعالى ويتقرب إليه بأنواع الطاعات، فهذا كله من شؤم هذه المقدمات المنطقية التي أُدخلت على المسلمين فأفسدت عليهم دينهم، وإلا فإن السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم كانوا على السنن، وكانوا يروون هذه الأحاديث ولا يضيقون بها ذرعًا، بل يطيبون بها نفسًا ويقرون بها عينًا، هذا لقيط بن عامر بن المنتفق يأتي إلى النبي ﷺ على فطرته وسجيته ويسمع النبي ﷺ يقول: (**يضحك ربنا لقنوط عباده وقرب غِيَرِه، ينظر إليهم آيسين قانطين يظل يضحك يعلم أن فرجه قريب**)، فيجثو على ركبته ويقول: يا رسول الله: أو يضحك ربنا؟ فيقول النبي ﷺ: (**نعم**)، فيقول: لن نعدم خيرًا من رب يضحك. هكذا، بهذا الفهم الرائق البعيد عن التكلف، أما أولئك الذين التاثوا بلوثات المتكلمين فحينما يسمعون هذا النص يتبادر إلى أذهانهم عند ذكر صفة الضحك الأسنان والشفتان واللهوات وغير ذلك، فهم في الواقع مثّلوا أولًا فعطلوا ثانيًا، ولو أنهم أعطوا النصوص حقها وحملوها على الواجب فيها ما تبادر إلى أذهانهم المعنى الفاسد أصلًا، وعلموا أن لله تعالى من الوصف ما يليق به، ولا يماثل صفات المخلوقين.

هذا هو الوجه الأول الذي ينفي ويُبرئ الصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان من وصمة الجهل بالله تعالى.

المتن:

وَأَمَّا كَوْنُهُمْ كَانُوا مُعْتَقِدِينَ فِيهِ غَيْرَ اَلْحَقِّ أَوْ قَائِلِيهِ فَهَذَا لَا يَعْتَقِدُهُ مُسْلِمٌ وَلَا عَاقِلٌ عَرَفَ حَالَ اَلْقَوْمِ. ثُمَّ اَلْكَلَامُ عَنْهُمْ فِي هَذَا اَلْبَابِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُمْكِنَ سَطْرُهُ فِي هَذِهِ اَلْفَتْوَى أَوْ أَضْعَافِهَا، يَعْرِفُ ذَلِكَ مَنْ طَلَبَهُ وَتَتَبَّعَهُ.

وَلَا يَجُوزُ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ اَلْخَالِفُونَ أَعْلَمَ مِنَ اَلسَّالِفِينَ كَمَا يَقُولُهُ بَعْضُ اَلْأَغْبِيَاءِ مِمَّنْ لَمْ يَقْدُرْ قَدْرَ اَلسَّلَفِ، بَلْ وَلَا عَرَفَ اَللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ حَقِيقَةَ اَلْمَعْرِفَةِ اَلْمَأْمُورِ بِهَا مِنْ أَنَّ طَرِيقَةَ اَلسَّلَفِ أَسْلَمُ وَطَرِيقَةَ اَلْخَلَفِ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ اَلْمُبْتَدِعَةَ اَلَّذِينَ يُفَضِّلُونَ طَرِيقَةَ اَلْخَلَفِ عَلَى طَرِيقَةِ اَلسَّلَفِ إِنَّمَا أُتُوا مِنْ حَيْثُ ظَنُّوا أَنَّ طَرِيقَةَ اَلسَّلَفِ هِيَ مُجَرَّدُ اَلْإِيمَانِ بِأَلْفَاظِ اَلْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ، مِنْ غَيْرِ فِقْهٍ لِذَلِكَ، بِمَنْزِلَةِ اَلْأُمِّيِّينَ اَلَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ}[اَلْبَقَرَة: ٧٨]، وَأَنَّ طَرِيقَةَ اَلْخَلَفِ هِيَ اِسْتِخْرَاجُ مَعَانِي اَلنُّصُوصِ اَلْمَصْرُوفَةِ عَنْ حَقَائِقِهَا بِأَنْوَاعِ اَلْمَجَازَاتِ وَغَرَائِبِ اَللُّغَاتِ.

فَهَذَا اَلظَّنُّ اَلْفَاسِدُ أَوْجَبَ تِلْكَ اَلْمَقَالَةَ اَلَّتِي مَضْمُونهَا نَبْذُ اَلْإِسْلَامِ وَرَاءَ اَلظَّهْرِ، وَقَدْ كَذَبُوا عَلَى طَرِيقَةِ اَلسَّلَفِ، وَضَلُّوا فِي تَصْوِيبِ طَرِيقَةِ اَلْخَلَفِ، فَجَمَعُوا بَيْنَ اَلْجَهْلِ بِطَرِيقَةِ اَلسَّلَفِ فِي اَلْكَذِبِ عَلَيْهِمْ، وَبَيْنَ اَلْجَهْلِ وَالضَّلَالِ بِتَصْوِيبِ طَرِيقَةِ اَلْخَلَفِ.

الشرح:

الشيخ نفى الاحتمال الآخر وهو أن يكون الصحابة ومن بعدهم من التابعين كانوا معتقدين في باب العلم بالله غير الحق أو قائليه، ولشدة استبعاد الشيخ لهذا الأمر قال: فهذا لا يعتقده مسلم ولا عاقل. بالفعل، لا يمكن لمسلم أن يعتقد أن الصحابة الكرام نُزّاع القبائل الذين اصطفاهم الله عز وجل لصحبة نبيه ﷺ يكونون قد اعتقدوا في الله معتقدًا مخالفًا لما جاء به رسول الله ﷺ، ولا يمكن لأحد أن يحفظ عن واحد منهم ما يؤيد طريقة الخلف من تأويل الصفات أو القول بالتجهيل، ثم إن الشيخ في باب

الإثبات قال: بل المروي عنهم أكثر من أن يُحصر في مثل هذه الرسالة أو أضعافها. فالمحفوظ بحمد الله كثير، لكن كما تعلمون أنه في العصور المتأخرة قصر الناس عن الرواية، وصاروا يعتمدون على خالصات ومتون كتبها لهم أسلافهم، فصاروا يعولون عليها ولا يرجعون إلى كتب المتقدمين، ولهذا فاجأهم شيخ الإسلام ابن تيمية بما أودع في هذه الرسالة من النقول عن السلف المتقدمين، فاجأهم وأذهلهم وأحدث عندهم هزة عظيمة، أضف إلى المحنة التي جرت بسبب الحموية، وبيّن الشيخ السر العميق أو السبب الذي لأجله تنكبوا الطريق، قال –وكان قد قال قبل ذلك أيضًا-: كيف يُعقل أن يكون ما عليه الخلف أفضل مما عليه السلف الصحابة وأبناؤهم والتابعون؟ كيف يكون فروخ المعتزلة والفلاسفة أفقه في دين الله وفي باب العلم بالله من الصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان؟. هذا لا يمكن، ولذلك لما أراد هؤلاء المتكلمون أن يُجروا شيئًا من المحاصصة ويفرقوا الصفقة أتوا بهذه الجملة البائرة فقالوا: طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم. كأنما يريدون ترضية الأطراف، مع أن الحق واحد لا يتعدد، لكنهم أرادوا كأنما يربطوا على الأكتاف فيقولون: طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم. مع أنك لو تأملت هذه العبارة لوجدتها عبارة متناقضة، لأن السلامة ثمرة العلم والحكمة، أنت عندما تريد أن تسلك طريقًا كيف تحصل لك السلامة في اجتياز هذا الطريق؟ بالعلم بمراحل الطريق وبالالتزام بقواعد المرور حتى لا تقع في شيء من المحاذير، فإذا اجتمع عندك علم بالطريق وحسن أداء في القيادة يعني حكمة، سلمت بإذن الله، فالواقع أن بين السلامة وبين العلم والحكمة اقتران، فكيف يُفرق بينهما ويقال: طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم. بل صوابها أن يقال: طريقة السلف أسلم وأعلم وأحكم. إذ السلامة ثمرة العلم والحكمة، فهذه العبارة ناتجة عن فهم ضائق لطريقة السلف، أتدرون ماذا ظنوا؟ كانوا يظنون أن السلف طريقتهم كطريقة الدراويش الأغبياء الذين يقرؤون الكتاب أماني، يعني كما وصف الله تعالى بعض أهل الكتاب: **(وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ)** (البقرة: ٧٨): **(أَمَانِيَّ)**: جمع أمنية، أي تلاوة:

تمنى كتاب الله أول ليله وآخره لاقى حمام المقادر

تمني أي تلا، قال الضحاك في معنى قوله: **(إِلاَّ أَمَانِيَّ)**: عن ابن عباس: إلا قولًا يقولونه بأفواههم كذبًا. وقال ابن جرير عن ذلك: هو الأشبه بالصواب.وقال ابن كثير: **(إِلاَّ أَمَانِيَّ)**: يعني لا يدرون ما فيه؟. فالله تعالى قد ذم أهل الكتاب الذين يقرؤون الكتاب ولا يعونه ولا يفقهونه، فهؤلاء الذين أطلقوا هذه العبارة: طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم. جعلوا الصحابة والسلف الصالح بمنزلة هؤلاء الأميين أنهم يقرؤون لكنهم لا يفقهون ولا يعون ما يقرؤونه، ويكتفون بالإيمان المجمل حتى جاء في آخر الزمان المحققون الذين استخرجوا المعاني المجازية والغريب من المعاني، وحملوا كلام الله عليه، هذه حقيقة دعواهم في هذا الأمر، هذا هو ظن فاسد كما وصفه الشيخ، وهو يتضمن نبذ الإسلام وراء الظهر، فالواقع أنهم كذبوا على السلف وصوروا طريقتهم بغير ما هي عليه في الواقع، وجهّلوا ما كان عليه الصحابة، وضلوا.

المتن:

وَسَبَبُ ذَلِكَ اِعْتِقَادُهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ فِي نَفْسِ اَلْأَمْرِ صِفَةٌ دَلَّتْ عَلَيْهَا هَذِهِ اَلنُّصُوصُ لِلشُّبُهَاتِ اَلْفَاسِدَةِ اَلَّتِي شَارَكُوا فِيهَا إِخْوَانَهُمْ مِنَ اَلْكَافِرِينَ، فَلَمَّا اِعْتَقَدُوا اِنْتِفَاءَ اَلصِّفَاتِ فِي نَفْسِ اَلْأَمْرِ -وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ لَا بُدَّ لِلنُّصُوصِ مِنْ مَعْنًى- بَقَوْا مُتَرَدِّدِينَ بَيْنَ اَلْإِيمَانِ بِاللَّفْظِ وَتَفْوِيضِ اَلْمَعْنَى - وَهِيَ اَلَّتِي يُسَمُّونَهَا طَرِيقَةَ اَلسَّلَفِ- وَبَيْنَ صَرْفِ اَللَّفْظِ إِلَى مَعَانٍ بِنَوْعِ

تَكَلُّفٍ – وَهِيَ اَلَّتِي يُسَمُّونَهَا طَرِيقَةَ اَلْخَلَفِ– فَصَارَ هَذَا اَلْبَاطِلُ مُرَكَّبًا مِنْ فَسَادِ اَلْعَقْلِ وَالْكُفْرِ بِالسَّمْعِ، فَإِنَّ اَلنَّفْيَ إِنَّمَا اِعْتَمَدُوا فِيهِ عَلَى أُمُورٍ عَقْلِيَّةٍ ظَنُّوهَا بَيِّنَاتٍ وَهِيَ شُبُهَاتٌ، وَالسَّمْعُ حَرَّفُوا فِيهِ اَلْكَلَامَ عَنْ مَوَاضِعِهِ.

الشرح:

الشيخ فعلًا وقع على الداء الذي أصاب هؤلاء، فقال: إن سبب إطلاق هذه المقالة، وسبب هذا الظن الفاسد: هو أنهم اعتقدوا في قرارة أنفسهم أن الله سبحانه وتعالى لا يتصف بصفة ثبوتية. نفاة الصفات في واقع أمرهم يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن تقوم به صفة ثبوتية، يعني لا يمكن أن يقوم به وصف؛ لأن قيام الوصف به في اعتقادهم ومقدماتهم الباطلة يقتضي تشبيهًا، فلما اعتقدوا هذا الأمر بقوا متحيرين: إما أن يجعلوا هذه النصوص خلية من المعاني، أو يبتكروا لها معاني تكون ذات معنى محتمل، هذا هو السر، فالسر هو أنهم من حيث البداية –كما قال الشيخ– اعتقادهم أن ليس في نفس الأمر صفة دلت عليها هذه النصوص، بسبب الشبهات الفاسدة؛ لذلك دار الأمر عندهم بين هذين الاحتمالين: بين الإيمان بألفاظ لا معاني تحتها وهي التي زعموا أنها طريقة السلف، وبين صرف اللفظ إلى معان مجازية، التي سموها: طريقة الخلف، فمذهبهم هذا مركب من الكفر بالنقل؛ لأنهم ردوه في الواقع، وبين الضلال في العقل؛ لأنهم أتوا بمعان من عند أنفسهم زعموها عقلية.

الشيخ يريد أن يبين ما الذي حمل هؤلاء المتكلمين على هذا الظن الفاسد؟ فقال: إن السر الحقيقي في هذا هو أن المتكلمين لا **يعتقدون أن النصوص دلت على صفة ثبوتية لله عز وجل**، فإذا أخبر الله تعالى عن نفسه بأنه استوى، أو يجيء، أو كذا وكذا، من الصفات الثبوتية، فهم في الواقع في قرارة أنفسهم لا يثبتون هذا لله تعالى، إذن ماذا يصنعون بهذه النصوص التي إما أنها كتاب مقطوع بتواتره، وإما سنة مروية بطرق صحيحة؟ ليس أمامهم إلا أحد أمرين: **إما إيمان بألفاظ لا معاني تحتها وتفويضها إلى الله عز وجل**، وهذه هي التي ظنوها طريقة السلف، ويسمونها: التفويض، **وإما أن يجتهدوا في البحث عن معان مجازية مظنونة**، حتى هم لا يقطعون بأن هذا هو مراد الله، لكن يقولون: نحملها عليها اجتهادًا. فلما صار الأمر عندهم دائرًا بين هذا وهذا فضّل بعضهم التفويض، وفضّل بعضهم التحريف الذي يسمونه تأويلًا، وهم يصوغون الطريقين، حتى قالوا في منظومتهم:

وكل نص أوهم التشبيها　　　فوضه أو أول ورم تنزيها

هكذا، مع أن الحق لا يمكن أن يكون متعددًا، الحق واحد، لا سيما في هذه الأمور العظيمة في مفاصل الاعتقاد، يقول:

وكل نص أوهم التشبيها　　　فوضه أو أول ورم تنزيها

وهم إذا دعوا إلى التفويض –أيها الكرام– لا يقصدون تفويض الكيفية.

اعلموا –يا رعاكم الله– أن كل صفة من صفات الله تتعلق بها ثلاثة أمور: **لفظ، ومعنى، وكيفية**. لفظ دال عليها جاءت به النصوص، ومعنى رُكبت عليه اللغة، له وضع عربي، وكيفية هي عليه في الواقع، فما الذي في طوقنا ووسعنا؟ إثبات اللفظ، وإثبات المعنى، وأما الكيفية فإلى الله عز وجل.

أهل التجهيل الذين زعموا أن هذه هي طريقة السلف اختلط عندهم مسألة تفويض المعنى وتفويض الكيفية، فجعلوها من بابة واحدة، لم يميزوا بين تفويض المعنى وتفويض الكيفية، أوضح لكم ذلك بالمثال حتى يتبين اختلاف طرائق الناس: حينما يقول ربنا سبحانه وبحمده: (**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**) (طه: ٥)، **أهل التحريف ماذا يصنعون؟** يقولون: الاستواء من صفات المحدَثين

وسمات المخلوقين، والله منزه عن الاستواء، إذن لا يمكن أن يكون الاستواء على ظاهره، إذن لنبحث ونجتهد في العثور على معنى يليق بالله دل عليه مجاز اللغة. فاصطلحوا أو بعضهم على أن (**اسْتَوَى**) تُحمل على استولى، مع أن اللغة لا تُسعفهم في ذلك، فاخترعوا هذا المعنى المجازي وسموه تأويلًا، فقالوا: (**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**) (طه: ٥): أي استولى. هل عندكم دليل؟ عندكم أثر؟ عندكم نقل عن أحد من الصحابة والتابعين؟ قالوا: لا، ليس عندنا شيء. هم يعترفون أنهم لا دليل عندهم، يقولون: نحن فعلنا ذلك اجتهادًا في صون عقول العامة من لوثة التشبيه، وليت الله عافى العامة منهم، هم الذين أفسدوا عقول العامة.

مقابلهم وهم أهل التجهيل قالوا: لا يجوز أن يقال: استوى استولى، ولا يجوز أن يقال: استوى بمعنى على -كما قال السلف-. إذن ماذا يُقال؟ قالوا: لا يُقال شيء، نُثبت الهمزة والسين والتاء والواو والألف المقصورة وكفى، ونقول: لله صفة اسمها الاستواء لا ندري ما هي؟ فقط نقول كما قال الله: (**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**) (طه: ٥)، لكن لا نعرف معنى لها. فصاروا هم فعلًا بمنزلة الأميين الذين لا يقرؤون الكتاب إلا أماني، ولا يعرفون معنى لما أخبر الله به عن نفسه، وأبطلوا معنى قول الله تعالى: (**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**) (الزخرف: ٣) (**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**) (يوسف: ٢) (**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**) (ص: ٢٩)، فسدوا باب العقل والنقل.

أما أهل السنة فأتوا إلى هذا النص: (**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**) (طه: ٥)، فقالوا: إن الذي قال: (**اسْتَوَى**) في آية طه وفي ستة مواضع في القرآن سواها هو الذي قال في سورة الزخرف لما ذكر الفلك والأنعام قال: (**لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ**) (الزخرف: ١٣)، فمعنى استوى في آية الزخرف أي علا واستقر، فكيف يكون معناها معلومًا في سورة ولا يكون معلومًا في سورة أخرى؟ معناها علا واستقر، لكنها إذا أُضيفت إلى الله صارت تليق به، وإذا أُضيفت إلى المخلوق صارت تليق به، كما نقول في بقية الصفات، أليس الله تعالى قد قال: (**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**) (المجادلة: ١): أثبت الله لنفسه السمع، ومع ذلك فقد أثبت لعبده السمع فقال: (**إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**) (الإنسان: ٢)، وليس سمع كسمع، وليس بصر كبصر، فإن الاشتراك في اللفظ والمعنى إنما هو اشتراك في الذهن لا في الخارج، فإذا أُضيف تخصص، إذا أُضيف السمع إلى المخلوق صار سمعًا يليق به، وإذا أُضيف السمع إلى الخالق صار سمعًا يليق به، ولهذا قالت عائشة: سبحان الذي وسع سمعه الأصوات؛ لقد جاءت المجادلة تجادل رسول الله ﷺ، وإني لفي جانب الدار يخفى عليّ بعض كلامها، وقد سمع الله قولها من فوق سبع سموات.

فهذا يبين لنا اختلاف هذه الطرائق الثلاث: طريقة أهل التحريف، وطريقة أهل التجهيل، وطريقة أهل السنة في الإثبات، فإذا طبقنا هذا على سائر الصفات تبين لنا الفرق بين هذه المناهج.

والله أعلم.